قصة قصيرة

قطاع الرجل

مرزاق بقطاش

(١) حي قطاع الرجل :

رويدكم ، فالحياة صارت ثقيلة كالرصاص .

انها أثقل مما مضى ، وأنا أدرى بمثل هذه الوطأة . لقد شهدت حروبا ، وأحسست بوقعها الحديدي غير ما مرة ، وتحملت رواسبها . وأعترف لكم أنني بعد الحرب الاخيرة أصبت في مقاتلي . فالشيخوخة زحفت عليّ دفعة واحدة ، وصار من المستحيل أن أصمد في وجه التغير المفاجىء . انني ادرك تمام الادراك انه اعتراف خطير ، واني لي أن أتجنبه والموت العاصف ينتظرني عند الابواب ! قبل أسبوع واحد ، قطعوا جزءا من أوصالي العليا التي تربطني بالطرف الآخر من المدينة .

حكايتي قد تطول وقد تقصر .

لقد ولدت في ذهن معماري لا يعرف التاريخ له اسما ، ونيّفت على أربعة قرون . كاتاروجيل ! هكذا يقول اللوح المكتوب بالاحرف اللاتينية ، ولست في الحقيقة الا قطاع الرجل . وهذا الاسم غريب حقا . كما ترون . وأنا لا اكاد أذكر شيئا في هذا المضمار . خلاصة القول هي انني زقاق طويل في قلب القصبة ، أمتد من الجانب السفلي الى غاية الجانب العلوي الواقع في الشرق . ولعلكم تعلمون انني فقدت هيبتي منذ زمن طويل . فالناس كلهم يعرفون انني حيّ المواخير . لو انني استطعت أن اجد تفسيرا لاسمي الحقيقي ، لاقنعتهم بالعدول عن هذه الصفة التي ألصقوها بي . وإن كانت هذه هي الحقيقة في واقع الامر .

لا مناص لي من الحدث عن وطأة الحرب الاخيرة ، لانها حطمتني شر تحطيم .

مدافع الغزاة الاسبان ما كانت لتنال مني ، وهجمات السلب والنهب التي شنها الفرنسيون لم تترك بصماتها ، غير ان هذه الحرب تركتني أتقوقع على نفسي لأاوك أمجادي وتاريخي . وأنتم تعلمون ان الفقراء هم حطب الحرب ووقودها المفضل . لذلك لم يكن عجيبا أن يكونوا من السباقين الى خوضها . ظنا منهم ان عهد الجوع سينقضي الى الابد . غير انهم ما كانوا يعرفون شيئا عن هذه العملية الجهنمية ، فوقع ما لم يكن في حسبانهم . ولم يحصلوا الا على النزر اليسير كما يقال . وأنا الآخر ، كنت أظن انني سأجني ثمرة مقابل الضحايا الذين قدمتهم ، لانني كنت أدفع لاول مرة مثل ذلك العدد من المحاربين في وجودي كله . انني لا أذكر عددهم في أيامنا هذه .

كيف كانت النتيجة يا ترى ؟

أحسب انكم لا تعرفونها . اذن خذوها بحذافيرها !

كلكم تعرفون « قدّور » البطل ! أليس كذلك ؟ بعد الحرب مباشرة اضطر العائدون الى أن يجمعوا بعض المال لوالدته كي يشتروا لها فراشا تنام عليه ، هناك في تلك الغرفة السفلية التي تقع في المنعطف . انني أكره الافضاء بمثل هذه الامور ، غير ان الحقيقة هي الحقيقة . ثم انني بلغت سنا لم أعد أخشى معها شيئا . أطرافي تآكلت ، وكنت أظن انهم يتفهمون وضعيتي هذه . ويعملون على حفظ التاريخ ، لكنهم ما فعلوا شيئا من هذا القبيل . كل ما في الامر هو انهم تركوني أموت شيئا فشيئا ، وأفسحوا المجال لدخول عائلات فقيرة الى هذا المكان .

بربكم ، هلاّ نظرتم الى هؤلاء الاطفال ! المحظوظون منهم لم تمتلىء بطونهم الا بالخبز والماء وبعض الطماطم التي سرقوها من السوق . حتى آباؤهم عاجزون عن ارسالهم الى المدرسة لنقص ذات اليد . وتلك المراة التي تبيع جسدها هناك ، في ذلك البيت الضيق الواقع على أطراف الزقاق ، أتعرفونها ؟ انها تعلم تمام العلم ان جسدها لم يعد يصلح للبيع منذ زمن طويل . ولكن لا سبيل لها الى الاكل سوى أن تعرض بضاعتها الكاسدة .

العديد من أمثالها أغلقن أبوابهن ، ولست أدري كيف تصل لقمة الخبز الى أفواههن .

أرجوكم ، لا تستفزوني كثيرا ، فقد أفقد وقاري. كنت أظن أن الحرب الاخيرة هي الخلاص الوحيد ، والعكس هو الذي حدث . فلقد ازددت فقرا على فقر ، وظللت حي المواخير بالقصبة .

أتريدون الحقيقة الساطعة ؟

رأيت الاثرياء يزدادون ثراء ، ولا من أحد يضرب على أياديهم ، واستطاع « قدور » أن يكون خلفا لموريس في العديد من الاحيان .

الا ما أشد نفاقكم ! انكم تعرفون مثل هذه الحقيقة، غير انكم تجدون لذة في أخذها من هرم مثلي . الافضل أن أسكت عنكم . فأنا أنتظرهم هذه الايام . لقد قرروا أن يهدموا جزءا مني حتى يستطيع السياح زيارتي دون خطر الانقضاض عليهم .

(٢) الزانيــة :

هذا الصباح فيه مذاق الرماد .

حي قطاع الرجل يبدو رماديا ، ولعل انعكاس أشعة الشمس هو الذي يخلق مثل هذا اللون الكابي .

الزقاق يلتوي كعادته ، ويتداخل في ذاته ، ويؤثر السكون ، أما هذه السلالم الفرعية الضيقة فتحاول أن تفسح المجال للحياة العادية . انفتح باب خشبي صغير ، وأطل منه وجه امرأة بين الخامسة والاربعين والخمسين من العمر . نظرات بعض المارة استقرت على هذا الوجه بعض الوقت ثم انسحبت عنه . انه لا يكاد يشجع الانسان على التحديق فيه طويلا . أبرز ما فيه هو ذلك الانف الاقنى الذي ترتفع فوقه عينان ضيقتان ، ويستقر أسفله فم منكمش فقد أسنانه الامامية .

المرأة تفتح الباب كله ، فينطلق بكاء طفل في الثالثة أو الرابعة ، وسرعان ما يظهر كلب عند العتبة . هناك دكة خشبية عليها غطاء قديم . ذلكم هو المكان الذي تضاجع فيه هذه المرأة زبائنها . انها تقف عند العتبة بجوار الكلب ، وتنظر نحو الناحية العلوية حيث يتقاذف عدد من الاطفال كرة من الورق في حدود مساحة ضيقة كانت فيما مضى بيتا للدعارة . عيناها الضيقتان تحاولان أن تتبينا أحد الاطفال ، ثم ينطلق منها صوت متهالك : « حميد » . ولا يلبث الطفل أن يسارع اليها تحت سخريات أصحابه . الحديث بينها وبينه ليس طويلا . فقد سلمته قفة صغيرة وطلبت منه أن يسرع الى السوق ويشتري لها الطماطم . يبدو ان الاطفال غاضبون بعض الشيء ، لان اللعبة لم تعد متساوية بينهم بسبب ذهاب رفيقهم . أحدهم يتناول ماندولينة ليس فيها الا الخيط الرابع ، ويحاول أن يعزف لحنا شعبيا فيعجز ، ثم يطرحها جانبا في مكان من الساحة ويدخل في حوار مع أصحابه عن كيفية مواصلة اللعبة .

المرأة تنزع الغطاء عن الدكة الخشبية وتنفضه عند الباب ، فيتذمر المارة ، غير انها لا تعيرهم اهتمامها . هناك فرن صغير وسط البيت ، وقد وضعت عليه قدرا صغيرة ، تعيد الغطاء الى مكانه ، ثم تميل نحو القدر ، فتحركه قليلا .

الطفل جالس على الارض وليس على جسمه الا قميص خفيف . يده اليمنى تعبث بذنب الكلب ، بينما يشد باليسرى قطعة من خبز . المرأة تعصب خمارا على رأسها ، وتحدق في الطفل وكأنها تريد أن تقول شيئا يبعثها على القلق . تتردد هنيهة ، ثم تميل عليه وتمسح المخاط عن انفه بخرقة ، وتعاود التحديق فيه . عيناها تلتمعان وسرعان ما تخبو التماعتهما وكأنهما تذكرت شيئا محزنا . « يبدو ان أمك لن تعود ، وليتك تعلم انها لن تعود » . تقوم من مكانها وتستقصي أبعاد الحجرة الضيقة التي تعيش منها وفيها . يتضح من نظراتها انها تريد أن تجد مكانا للطفل يستطيع النوم فيه . « لو كنت تقفز على رجليك كهؤلاء الاطفال لما طرحت لي أية مشكلة. انني أكره أن يدخل عليّ رجل وأنت هنا معي » .

الحركة عادية في السلالم ، غير ان بعض المارة يتطفلون على ما في داخل الحجرة فتحدجهم المرأة بنظرات ناقمة . والاطفال في الساحة الصغيرة عادوا الى اللعب مطلقين بين الفينة والاخرى صرخات متقطعة. المرأة تجلس عند العتبة الى جانب الكلب ، وفي حجرها عدد من حبات البطاطا تقشرها بحركة رتيبة . بهذه الطريقة ستضع حدا لتطفل المارة ، ثم هي تعلم ان الزبائن لن يأتوها في مثل هذه الساعة من الصباح . حنجرتها تنطلق بالغناء دون أن تتوقف عن تقشير البطاطا : « يا قنديل البيت اللي تحول » . الطفل يستند الى ظهرها فتوجه نحوه نظرة جانبية وتبتسم ، ثم تحاول الاستمرار في الغناء ، غير انه يحاول أن يتسلق ظهرها فتتوقف . « لو جئتني قبل هذه الازمنة اللعينة لاستطعت أن أعيلك وأبعثك الى المدرسة . ليتك تعلم انني لا أكاد أحصل على خبزي الضروري » . وتصمت المرأة ، تميل بجذعها نحو الجهة العلوية من السلالم وتتنهد .

القدر في الداخل بدأت في الغليان . يبدو ان الكلب لا يحب الاصوات المتولدة عن الغليان ، فقد بدأ يهز ذنبه في قلق ، بينما راحت عيناه تطرفان . تنظر اليه المرأة في عطف : « لا تخف . فالقدر لن تندلق عليك هذه المرة ! » . وتعمد الى القدر وتحرك ما بجوفها بملعقة خشبية ، ثم تعود الى مكانها على العتبة . ويتخذ الطفل هو الآخر مكانه على العتبة ، فيتراجع الكلب قليلا ليفسح له المجال . تعود المرأة الى الغناء ،

وتكرر الكلمات نفسها : « يا قنديل البيت اللي تحول . ما حاجتي بك الليلة » . ثم انها تتوقف دفعة واحدة . وقد غير الغضب ملامحها . وتنظر الى حجرها وهي تهمهم . لقد تبين لها ان معظم حبات البطاطا متعفنة . الغضب يتحول الى حزن شيئا فشيئا ، ثم تواجه الطفل وراءها ، وتريد أن تقول له بعض الكلمات . وسرعان ما تعود الى جلستها وتسند جبهتها الى يدها اليسرى وتظل مطرقة برأسها .

في هذه اللحظة بالذات ، يندفع احد الاطفال من الساحة العلوية الصغيرة نازلا لالتقاط الكرة التي تدحرجت فوق السلالم ، وتتتابع وراءه نداءات الاطفال مستعجلة اياه . غير انه يلتقط الكرة . ثم يرسل ابتسامة نحو المرأة ، ويلعق شفتيه : « ما الذي تطبخينه ؟ » . ولا يأتيه أي جواب منها ، فيقترب . ويلاعب الكلب والطفل ، ثم يقول للمرأة وهو متأكد من نفسه : « سوف أتناول بعض الحساء معك عندما تفرغين من اعداده » . ويندفع صاعدا السلالم في سرعة .

وتظل المرأة مطرقة الرأس .

(٣) الطفل :

لقد بدأ صعود السلالم المتعرجة المفضية الى حي قطاع الرجل .

صعوده متثاقل . وخطواته غير عادية . يده اليسرى تمسك بالقفة ، أما اليمنى فهي موضوعة أفقيا على أنفه . انه يصعد ويصعد . ثم يتوقف ويطلق سعالا ، ويمسح أنفه بكم قميصه . خيط من الدم ينسحب على خده منطلقا من أنفه . لا يبدو عليه انه يبكي مع ان عينيه حمراوان . انه يتوقف على بسطة السلالم ويضع القفة جانبا . عدد من الاطفال يتحلقون حوله وهم ينظرون اليه دهشين . ويتهامسون فيما بينهم ، فيزعم البعض منهم انه تلقى صفعة ، بينما يدعي البعض الآخر بأنه تشاجر مع أطفال الحي السفلي من القصبة . اما هو فلا يكاد يسمع اليهم بجد ، فقد انهمك في تنظيف وجهه ، وراح يمسح آثار الدم المتجمد على أطراف يده اليمنى . انه لا يريد أن تعرف المرأة شيئا مما حدث له . فقد ترق له ، غير انها سوف تفضي به الى والده . انها تعرف والده منذ زمن بعيد ، فهو يكاد يكون الوحيد الذي يوجه لها التحية من أبناء الحي ، ويتبادل معها بعض الكلمات المقتضبة .

لقد ابتعد الاطفال عنه بعد أن أشاح بوجهه عنهم . تناول القفة واستمر في الصعود . لم تبق أمامه سوى هذه العطفة الصغيرة ويطل بعدها على حي قطاع الرجل . علامات القلق تظهر عليه ، ويده اليمنى تعاود مسح وجهه كأنه يستوثق من ان آثار الدم قد زالت عنه تماما . توقف عند العطفة قليلا . وجعل يسترق النظر الى المرأة والى الاطفال في الساحة العلوية الصغيرة . وخمن بأنه ينبغي عليه أن يسارع الى المرأة ويطرح القفة أمامها ، ثم يندفع نحو الساحة العلوية حتى لا يفتضح أمره . ورقت له الفكرة ففعل ، ووجد نفسه وجها لوجه مع المرأة . حاول أن يتخلص من نظراتها ويندفع في السلالم ، غير انها كانت قد شدت يده اليمنى شدا محكما . وانتشرت الحمرة بسرعة في كامل وجهه ، فاطرق برأسه . انه يسمع التنهيدة التي ترسلها المرأة ، وهو يعلم الأبعاد التي تحملها في طواياها .

انه يحس الآن بيدها تنزلق شيئا فشيئا على رسغ يده . ومع ذلك فلم تعد به أية رغبة في الانفلات منها ومن أسئلتها . تكفيه هذه النظرات الضيقة المليئة بالحسرة . شعر فجأة بدافع الى البكاء ، والتمعت عيناه بالدموع ، غير انها انتهرته بحركة من يدها ، لكأنما ساءها أن تراه باكيا . انه لا يبكي بدافع الخوف ، ولا بدافع الحياء . هناك شيء مبهم في ذاته يستحثه على اطلاق العنان لدموعه . ويدرك آخر الامر ان ذلك الشيء ليس سوى الفقر . انه لا يعرف ما الفقر ، بل لا يكاد يشعر به ، ولكنه حين يجد نفسه وجها لوجه مع ذلك الشيء المبهم يعرف حقيقته .

لن يقوى على التحرك من هذا المكان . انه يحس بأنظار رفاقه من الاطفال تنهال عليه من الساحة العلوية . ويشعر وكأن نداءاتهم المتكررة تقرع أذنيه قرعا . ويزداد اطراقا برأسه محدقا في ثقوب العتبة ، لن يخلصه شيء من وطأة الوقفة سوى أن يفضي للمرأة بما حدث له . هذه هي عادته التي تتكرر مرتين أو ثلاث مرات في الشهر الواحد . ومع الابهام الذي تصطرع به نفسه ، يبرز تساؤل ملح في ذهنه : « لماذا تراها تصر على أن ترسلني الى السوق وهي تعلم انني لن أضبط يدي أمام السلع المتراصة ؟ » .

احس بضغط على يده ، فأدرك بأن اللحظة المنتظرة قد حانت . وصعد العتبة وهو يتفادى قدمي الطفل وذنب الكلب ، ثم انه جلس على طرف الدكة دون أن يرفع رأسه . لم يكن يشعر بالخجل أمام نظرات الفضوليين من المارة ، فالعيش في حي قطاع الرجل أمر عادي جدا ، بل ان هذا الحي لا يختلف في نظره عن بقية الاحياء الاخرى الا بفقره المدقع . وفيما عدا ذلك فانه لا يكاد يعير اهتماما لما يجد حواليه .

قلبه يخفق بشدة في هذه اللحظة . فهو يدري ان أسئلتها قد تنهال عليه دون مقدمات . هذه هي اللحظة التي يعاني فيها ما يعاني . يحاول بقدر الامكان ألا يصرعه السؤال المفاجيء ، ويجد نفسه آخر الامر منظرحا منهزما . لقد رفع رأسه قليلا ، وراح ينظر اليها وهي

تحرك القدر ببطء ، ثم انه أبصر بها وهي تلاعب الطفل ، وتقف عند العتبة مولية ظهرها له . الطفل يقترب منه ، فينحني حتى يلاعبه . وقد نسي لبضع ثوان ما ينتظره. واذا بالسؤال يأتيه قاطعا : « ماذا سرقت ؟ » .

ندت عنه حركة مضطربة من رأسه . وازداد خفقان قلبه . عليه الآن أن يفكر في الاجابة ، فهي لن تسمح له بالخروج ما لم يفض لها بما عنده . وهل له ان يفكر ويحاول مداراتها وهي تعلم ما أقدم عليه ؟ وأعادت عليه السؤال في شيء من العنف : « ماذا سرقت ؟ » . وأدرك هذه المرة كعادته ان الجواب الصريح هو الذي ينقذه من هذه المرأة ، ومن ذلك الشيء المبهم الذي يستقر في ذاته . أوضح لها في البداية متلعثما انه كان يمر بين طاولات الخضر عساه يعثر على الطماطم، واذا بصندوق من الزيتون الملتمع يظهر أمامه الى جانب احدى الطاولات . ولم يحاول أن يزيد في توضيحه ، فهو يعلم انها ستقوم بالبقية . وهزت رأسها وقد ارتسم على وجهها ما يشبه اليأس وقالت : « طبعا ، انت لم تستطع أن تتمالك نفسك ، فأخذت قبضة من ذلك الزيتون . أليس كذلك ؟ » . وأجابها بحركة عمودية من رأسه وعيناه تستقران على جانب من جدار الغرفة . لقد ظهرت لها الحقيقة الآن ، فلم لا تتركه وشأنه ؟ يبدو انها تعرف سبب ذلك الخيط الرقيق من الدم المستقر تحت أنفه . وبحركة سريعة ، مرر كمّ قميصه على انفه . فلاحظت ما بدر منه وسألته اذا ما كان قد تلقى صفعة من صاحب الطاولة ، وردّ عليها أن نعم . ثم رآها وهي تتلفظ بأقذر الشتائم ، وترسل تهديدات طويلة . ووجد الفرصة سانحة ، فحاول القيام من مكانه الا انها أوقفته وهي تحدق في وجهه بعينيها اللوزيتين الضيقتين ، وسألته اذا ما كان صاحب الطاولة قد هدده بأخذه الى مقر الشرطة فلم يكن له بد من أن يفضي لها بالحقيقة الكاملة .

ورآها تبادر الى اطفاء الفرن الصغير ، فأدرك بأن الواقعة لا مفر منها . انه يعلم الآن ان السوق سوف تنقلب رأسا على عقب . ثم عصبت رأسها ، وغطت جسدها بملاءة رقيقة ، وشدت الطفل الذي كان يلعب بين قدميها من خصره ، وأغلقت الباب دون أن تكفّ عن السب والشتم . وخرج من الغرفة وقد زايله الخفقان العنيف ، وجعل يحدق فيها وهي تنزل السلالم بحركات غير مضبوطة ، وتغيب في عطفة صغيرة ، في حين كان المارة يتوقفون صامتين وهم ينظرون نحوها .

وجعل يصعد السلالم التي تفصله عن الساحة الصغيرة بخطوات متباطئة . وهو يفكر في العشية وما ينتظره من والده . انه يعلم الآن تماما ان الخبر سوف يصل مسامع والده . فالضجة التي ستحدثها المرأة بعد قليل في السوق ستكون في علم الناس جميعا . ولم يعر أدنى اهتمام لالحاح رفاقه على اللعب معهم ، فقد كان غارقا في همه الكبير . وجلس عند سور الساحة مستندا بظهره اليه ، بينما راحت أصابعه تتحرك بحنو على خيط ماندولينه منطرحة الى جانبه . وأحس بنفسه وحيدا مثل خيط الماندولينه تماما .

(٤) الماندولينه :

« لو نعيد همومي نعمّر الف كتاب » (١) .

وما عساي أقوله بعد هذه السنين الطويلة سوى أن أبكي حظي العاثر ؟ ها أنذا الآن منطرحة في هذا المكان من الساحة بعد أن كنت السيدة المبجلة في مقاهي القصبة . ما كنت أتصور يوما انني قد أقع في يد هذا الحفيد الشقي الذي خلفه سي عبد القادر .

يقولون انني ولدت في مقاطعة الالزاس سنة ١٩٢٥ على يدي صانع ماهر . والعهدة في ذلك على تلك الخطوط البنفسجية المنقوشة في جوفي : « أميديو ديزدوني . الالزاس ١٩٢٥ » . تاريخ ميلادي لا يهم . خلاصة القول هي انني صرت ملكا لسي عبد القادر في السنة التالية . كان يعمل في الميناء تبعا لما يمليه عليه مزاجه . وان كان في حقيقة الامر يعيش مما يدره عليه الماخور الواقع في الطرف الغربي من حي قطاع الرجل . كان يفرض سيطرته على ست نساء ، ولم يكن ينزل للعمل في الميناء الا ليبعد عنه تحريات رجال الشرطة ، وفيما عدا ذلك كان لا يغادر حي القصبة الا للحصول على « الكيف » ثم يعود اليه لقضاء الليالي في الحانات مع رفاقه . وكنت بدوري ملازمة لسي عبد القادر كظله .

أروع ما كان ينطوي عليه سي عبد القادر من أخلاق هو انه كان يقف الى جانب الضعفاء دائما وأبدا ، ولا يفرض سيطرته الا على النساء اللواتي كنّ راضيات باحتراف البغاء . والطريف فيه أيضا هو انه لم يكن يحمل أسلحته النارية الا بعد أن تغرب الشمس لكأنه كان يريد أن يقهر الظلام وما يأتي به من بحارة وعشاق مغامرات .

ذات ليلة من سنة ١٩٣٥ . عاد سي عبد القادر الى بيته الذي يقع بنهج الاميرة « نفيسة » وسط القصبة . وكان مخمورا جدا ، يضمني اليه باليد اليمنى وتتدلى من يده اليسرى زجاجة خمر لم يبق منها الا القليل . ولم يكن من عادته أن يحمل الخمر الى الدار ، ولعله كان يظن ان والدته لن تبصره في الهزيع الاخير من الليل . غير انه ما أن دخل الدار حتى كانت والدته قد أشعلت القنديل . وراحت تستعد لاستقبال الفجر ، ويا لدهشته عندما انطلقت منها صرخة حادة . وقد وقعت أنظارها على زجاجة الخمر . لعلها كانت أمام مثل ذلك المشهد لاول مرة في حياتها ، ذلك انها راحت تصرخ

وتضرب صدرها ، بينما ظل سي عبد القادر واقفا عند مدخل الدار وقد عقدت الدهشة وجوده كله . ثم تحول صراخها الى بكاء عندما التفّ الجيران حولها يواسونها .

هذه الحادثة البسيطة حولت مجرى سي عبدالقادر، وجعلته يقلع عن معاقرة الخمر ، ويحرر النساء اللائي كنّ تحت سيطرته . اما انا فظللت في صحبته ، وان كنت قد تحولت الى المدائح الدينية بين أصابعه ، وتزوج سي عبد القادر ، وأنجب والد هذا الحفيد الشقي الذي يجرجرني صباح مساء في حي قطاع الرجل .

وما كان السلوك الجديد الذي اتبعه سي عبدالقادر ليقع موقعا حسنا في نفوس رجال الشرطة السرية ، لذلك راحت تقتفي آثاره أينما حل وارتحل . وضاق ذرعا بمثل تلك التحرشات ، فلم يجد بدا آخر الامر من الذهاب الى رجال الشرطة والاستفسار عن الاسباب . وكان الرد قبيحا ووقحا . واضطر سي عبد القادر في سنة ١٩٣٦ أن ينضم الى حزب الشعب الجزائري حتى يقوى على مواجهة رجال الشرطة بطريقة نظامية دون أن يلجأ الى استخدام طرائقه السابقة .

ورأيت سي عبد القادر يتحول من رجل فتوة يفرض سيطرته على قطاع عريض من حي المواخير بالقصبة الى رجل سياسي يحاول أن يستخدم ذكاءه ضد السلطات ، غير ان حياته السابقة دفعت بالمسؤولين عنه داخل الحزب الى أن يجعلوا منه رجلَ المبادرات ، فحيثما اقتضى الامر استخدام القوة والعنف ، كان سي عبد القادر هو المعني بالامر في المقام الاول ، وأعجبته المكانة التي احتلها بين أفراد الحزب ، غير انه كان شديد الحماس وهذا ما دفعه الى الهلاك .

وعلى الرغم من انه ظل سنتين كاملتين دون أن تستطيع الشرطة ايقاعه في الفخ ، الا انه وجد نفسه ذات يوم من بداية سنة ١٩٣٩ يبادر الى مساعدة احد المستخدمين المستضعفين . وكانت بادرته تلك تلقائية لم يتبع فيها أوامر الحزب . اني لا ازال اذكر ذلك المستخدم الذي طرقَ عليه باب بيته ذات مساء وهو يبكي لان صاحب الحانة التي يعمل بها رفض أن يدفع أجرته الاسبوعية بعد أن كسر دون عمد عددا من زجاجات الخمر . وانطلق سي عبد القادر الى الحانة ، وارغم صاحبها الاوروبي على دفع ما عليه من حساب لذلك المستضعف ، وما أن غادرها حتى كانت الشرطة تحاصره وتقتاده الى السجن .

واشتبه في أمر سي عبد القادر . واذا شئتم الحقيقة فانهم حمّلوه اتهامات ليست له اية علاقة بها . ووجد نفسه آخر الامر في السجن ، فحاول الفرار ، غير ان السلطات كانت قد اضافت نشاطه الحزبي الى قائمة الاتهامات الملفقة ضده .

لست أعرف بالتدقيق ما حدث له بسجن « الحراش » . فكل المعلومات التي لديّ التقطتها من بعض الذين عرفوه عن كثب في السجن ، وجاءوا الى الدار ليرددوا بطولاته على والدته وزوجته وابنه . فقد سعى في السجن الى تنظيم عدد من رفاقه ، واصطدم آخر الامر بأحد الحراس . وبعد مشاجرة كلامية ، كان ذلك الحارس ينطرح أرضا والدماء تسيل من جبهته على اثر ضربة وجهها له سي عبد القادر برتاج حديدي كان يحمله معه دائما .

وحوكم سي عبد القادر في بداية الحرب العالمية الثانية . وكان الحكم قاسيا . ثم انه خيّر بين السجن والتطوع في صفوف اللفيف الاجنبي والتوجه الى أوروبا لمحاربة هتلر . وقد اختار السجن بطبيعة الحال.

وكان سجن « لامبيز » قاسيا عليه . فقد قضى فيه من شدة الجوع ووطأة القمل .

ومع موت سي عبد القادر سيطر الفقر على عائلته ولا يزال الى يومنا هذا ، مع انه كان من المنتظر أن تتحسن أحوال الناس بعد الحرب .

« لو نعيد همومي يصير البحر غلاّب » (٢) .

---

(١) و (٢) من أغنية للمطرب الشعبي الجزائري الحاج محمد العنقاء .

صدر حديثا :

الانسان وقواه الخفية

تأليف كولن ولسن

ترجمة سامي خشبة

دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للوصول الى ما وراء الحاضر

منشورات دار الآداب